

تاريخ القبول: 2021/10/04

تاريخ الإرسال: 2020/09/30

تاريخ النشر: 2021/11/04

المنهج البنوي التكويني ومقاربة النص الشعري القديم Goldman's structure and the approach of the poetic text

د. بشير أعبيد¹، أ.د. رضوان جنيدي²

جامعة جيجل (الجزائر)، albachir72@gmail.com

جامعة تامنغست (الجزائر)، salimdjenidi@yahoo.fr

مخبر العلوم والبيئة تامنغست

الملخص:

يرى بعض الدارسين أن نصوص الشعراء العذريين قد شكلت محطات على غير صعيد، عدت منارات يجري الرجوع إليها لدراسة تجربتها الأدبية، ولفهم بعض جوانبها، رغم إدراكهم أن ولوج مجاهل هذه النصوص محفوف بكثرة المخاطر ووعورة المسالك؛ تقدم الدراسة قراءة جديدة تدرج ضمن ما يعرف بنقد النقد تحاول استكناه مدى قدرة المناهج النقدية الحديثة والمعاصرة - من خلال أصولها المعرفية والإبستمولوجية وأدواتها الإجرائية- وتحديد المنهج البنوي التكويني- من مقارنة النص التراثي.

تعتمد الدراسة على الوصف والتحليل واستخلاص النتائج، وتستقي من معين البنوية التكوينية التي تستند إلى القراءة المحايثة، وتبتعد عن القراءات التاريخية والاجتماعية السياقية، وتحاول الدراسة الإجابة عن التساؤلين التاليين: كيف طبق الناقد العربي المعاصر قراءته البنوية التكوينية المحايثة الحديثة على النص الشعري

العذري القديم؟ وما مدى مشروعية تطبيق هذا المنهج الحدائي على نص قديم له خصائصه المميزة، وطبيعته الفنية الخاصة ؟

الكلمات المفتاحية: البنيوية التكوينية - لوسيان غولدمان - النص الشعري - التراث والحداثة - النقد المغاربي.

Abstract:

Some scholars see that the texts of the poets, have considered as a references to be study, although they know that these texts are very hard to be catch. this study try to give a new sight, by focus on the criticism of criticism, and wonder how can the modern method of criticism deal with the various texts.

this study based on description and analysis, and how to know the formative structuralism, and also to answer of the following two questions: how did the modern arabic critic applied his reading to study inside the ancient text, and how can this method be efficient

Keywords: Formative structuralism - Lucian Goldman - Poetic text - Heritage and modernity - Maghreb criticism.

ALBACHIR72@GMAIL.COM المؤلف المرسل: بشير اعبيد، الإيميل:

1. مقدمة:

ارتكزت معظم الجهود والدراسات المتعلقة بالواقع السوسولوجي ومدى تأثيره على تشكل النص الشعري العربي عموماً، والذي تجسدت معالمه واضحة من خلال محافظة بعض الأقسام التي اتخذت من هذا الواقع خلفية ومرجعية في بناء الفهم الحقيقي للنصوص الشعرية ومحاولة تقريبها إلى مستويات الفهم المنغلقة والمتشظية داخل هذه النصوص الشعرية على شكل بنيات لا تسمح في الأعم الأغلب بتوليد المعاني، معلنة عن عجز غير مبرر وانسياق غير مؤسس عن طريق مقارنة تتبنى

في ظاهرها المنهج البنوي التكويني، الذي فك بطريقة أو بأخرى الحصار عن هذه المستويات المنغلقة على نفسها - كما قلنا- داخل النص الشعري في دراسة نقدية تعلن تحت رايتها هذه البنيات عن استسلامها للواقع الذي يحيط بها، والذي يمتلك سلطة توليد المعاني وضمان انسبابتها في صورة تهدف إلى إعادة تأهيلها وفق منظور اجتماعي يحد من قله التفاعل بين النص وما هو خارجه.

ويدفعنا ما سبق إلى محاولة تفصي المقاربة البنوية التكوينية من حيث المفهوم والأسس والمرتكزات واستجلاء شكل التلقي عند الطاهر لبيب للوقوف عند تطبيق هذا الوافد الغربي على نص تراثي.

- مفهوم البنوية التكوينية:

سنحاول معرفة الدلالات الاصطلاحية لمصطلح (البنية، structure) ومصطلح (التكوين، génétique) بما يخدم مفهوم البنوية التكوينية (structuralisme génétique) دون التعمق في استقصاء مفاهيم المصطلحين لأن مجال الدراسة لا يحتاج إلى ذلك؛ وإذا بدأنا بالمصطلح الأول (البنية) الذي اشتقت منه كلمة البنوية؛ وجدنا أنفسنا نعيد ما أقره الناقد التونسي عبد السلام المسدي حين قال: " يجب الاعتراف في هذا الشأن أن هذه الكلمة أخذت أبعادا كثيرة في النقد الحديث، مما يدعو أحيانا إلى اللبس والغموض؛ لذا ينبغي إحالة هذه الكلمة إلى المذهب الفكري والنقدي الذي يستعملها - إن توخينا الوضوح - ونستطيع التمييز بين مذهبين رئيسيين هما المذهب الشكلي والمذهب الإيديولوجي"¹

ويذهب هذا الدارس إلى أن المذهب الشكلي - وهو صنيع الاتجاه اللغوي والسيميائي- ركز على سكون البنية زمانا ومكانا، وعزلها عن محيطها وسياقاتها التاريخية والاجتماعية والثقافية التي أوجدتها وترعرعت في كنفها؛ في حين أكد المذهب الآخر الذي جسده البنوية التكوينية أن البنية لا يقتصر فهمها في حد ذاتها

خارج حدود الزمان والمكان؛ وإنما يتجاوز ذلك إلى تطورها ضمن إطار محدد للزمان والمكان، وتفاعلها وتحركها فيه.

ويؤكد الناقد الفرنسي من أصول رومانية لوسيان غولدمان (*Lucien Goldmann*) الذي يعود له الفضل في إطلاق صفة التكوينية أو التوليدية (*génétique*) على بنيويته عدم ارتياحه لمصطلح بنية لإضفاء صفتي الثبات والسكون عليها، يقول: "تحمل كلمة بنية للأسف انطبعا بالسكون، ولهذا فهي غير صحيحة تماما، ويجب ألا نتكلم عن البنى لأنها لا توجد في الحياة الاجتماعية الواقعية إلا نادرا ولفترة وجيزة، وإنما نتكلم عن عمليات تشكل البنى"²؛ ويؤكد هذا الناقد البنيوي أن المصطلح لم يكن من بنات أفكاره، وأنه استعاره من العالم النفسي البنيوي السويسري جان بياجيه (*Jean William Fritz Piaget*)، ويقول مصرحا بذلك: "لقد حددنا أيضا المنهج الإيجابي في العلوم الإنسانية وبصورة أكثر تحديدا المنهج الماركسي بمساعدة مصطلح يكاد يكون متطابقا معه والذي استعناه مسبقا من جان بياجيه، وهو مصطلح البنيوية التكوينية"³.

ويعتقد هذا الناقد أن بنية العمل الأدبي المرتبطة بالأعمال والتصرفات الإنسانية تتغير وتتطور وتحرك، فهي بنية دينامية (*structure dynamique*) بطابع فلسفي، وأن صفة التكوينية المقصود منها الدلالية بعيدا عن تقصي النشأة والميلاد، إذ "لا بد قبل كل شيء من التنويه بأن التكوين أو التوليد هنا لا يتضمن أي بعد زمني يعيد الشيء المدروس إلى تاريخ ولادته ونشأته"⁴، وتظهر بذلك هامشية الزمن الذي يبدو أمرا ثانويا.

ويورد الناقد المغربي جميل حمداوي سبب تسمية هذا المنهج النقدي بالبنيوية التكوينية، يقول: "وبعني هذا كله أن البنية الدالة ذات الطابع الفلسفي لا يمكن أن تبقى ساكنة، بل لا بد من إدراجها ضمن بنية أكثر تطورا لمعرفة مولداتها

وأَسباب تكوينها، لذلك سميت بالبنوية التكوينية⁵؛ ويتتبع مصطلحي هذا التركيب الوصفي المتشكل من البنية المتميزة بقيمها الجمالية وباستقلاليتها، ومن التوليد أو التكوين الذي يجعل هذه البنية تتطور تطورا يماثل تطور بنى المجتمع الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والثقافية.

وبالعودة إلى مفهوم البنية عند لوسيان غولدمان يتضح أنها تعني الأفعال الجماعية المعبر عنها بفردية الفاعل، حين يصبغ عمله بصبغة تصور الرؤية الذهنية لجماعته، وهي رؤية ذات بعد اجتماعي شمولي، وأن صفة التكوينية "على هذا الأساس تعني الصيغة الاستدلالية للفعل، وتتبع [مسير] تكوينه داخل العمل الفني وتعيد تركيب بناه ارتكازا على الدلالة الاجتماعية التي يتجه إليها"⁶، مع إبعاد سيرة الكاتب وما يرتبط بها من مواقف وأعمال؛ ويتجلى من خلال ذلك أن غولدمان أسس بنيان منهجه النقدي على ركيزتين: أولهما البنية الداخلية التي يجسدها المبدع الممثل لإرادة طبقته الاجتماعية، والأخرى العالم الخارجي للمبدع الذي يمثل مصدر مواقفه وآرائه.

ويتضح مما سبق أن لوسيان غولدمان أنقذ البنيوية الشكلية من خصيصة الانغلاق على النص، وأدرك علاقة الأديب بواقعه الاجتماعي بعيدا عن مبدأ الانعكاس الذي نادى به أقطاب المنهج النقدي الاجتماعي، ورأى بنية النص الأدبي تناظر بنية خارجية لشريحة اجتماعية، لتظهر البنيوية التكوينية في نظر الناقد الجزائري عبد الملك مرتاض بذلك "تهجينا واضحا للهيكلي البنيوي بالروح الاجتماعية أو محاولة لإنقاذ البنيوية والاجتماعية جميعا بالإفادة من أفضل ما فيها من مبادئ التأصيل المضموني في الثانية، والتأصيل الشكلي في الأولى، ثم تأسيس نظرية نقدية على أنقاض من ذلك"⁷.

ويقر صاحب كتاب (سوسولوجيا الرواية السياسية) أن البنيوية التكوينية تقع في منطقة وسطى بين المناهج النقدية السياقية التي تفسر الأدب استنادا إلى خارج النص، والمنهج البنيوي الذي يغلق النص على نفسه، ويرى أن صنيع غولدمان يهدف إلى "تكوين نظرية ذات موقف يقع ما بين الاتجاهات التقليدية التي تنظر إلى الأدب بوصفه وثيقة يمكن من خلالها رؤية الواقع الاجتماعي المعاش، والاتجاهات الأخرى مثل الشكلانية والبنيوية التي ترى الأدب بوصفه بنية مكنية بذاتها، ولا يمكن فهمها في ضوء الخارج"⁸؛ لتجسد بذلك البنيوية التكوينية مرحلة تقع بين انغلاق البنيوية، وانفتاح ما بعدها المؤكد للترابط والتداخل، وتعيد المكانة للنص الأدبي مراعية خصوصيته وفرادته دون فصله عن علاقاته بالمجتمع والتاريخ.

ويبدو المنهج البنيوي التكويني الغولدماني الذي يستقي صاحبه من معين آراء أستاذه الماركسي المجري جورج لوكانش "فلسفة متكاملة ذات منظور نقدي يتجاوز سلبية النقد إلى استشراف إيجابية تتسجها الجدلية القائمة بين الذات والموضوع، تلك الجدلية الممثلة لجوهر كل علم تكويني، فداخل كل بنية توجد بذرة نافية لها، بذرة تؤشر على ما ستكونه، أي بداية تبين يؤسس بنيات جديدة، ويلغي البنيات القائمة"⁹؛ وتبدأ بنيوية غولدمان من نقد الواقع القائم باستحضار ما تشكله الجدلية المحايثة، ليفتح الباب بعدها للذات الجماعية في فعلها وتفكيرها.

وفي تصور هذا الناقد فإن البنيوية التكوينية ليست "مفتاحا لكل شيء، بل منهجا للعمل، منهجا يتطلب أبحاثا تجريبية طويلة، مجرة بصبر: فهي ذاتها يتعين أن تتكامل وتراجع طيلة هذه البحوث"¹⁰، ويضع هذا الناقد فرضية أساسية لمنهجه البنيوي التكويني مفادها "أن كل سلوك إنساني هو محاولة لتقديم جواب دال على وضعية مطروحة، ومحاولة من خلال ذلك لخلق توازن بين الذات الفاعلة والموضوع الذي مورس عليه الفعل"¹¹؛ ويسعى هذا السلوك الإنساني وما يصاحبه من فكر من

جهة أخرى إلى إيجاد إجابة تعبر عن زمرة اجتماعية يتقاسم أفرادها الانشغالات والمشاكل نفسها.

ولا تجزئ بنبوية غولدمان النص الأدبي، وإنما تنتظر إليه بعدّه كلا يميزه تماسكه الداخلي، ويؤكد ذلك غولدمان حين يرى أن "العلاقة لا تتم أولاً بين محتوى الأعمال الأدبية ومحتوى الحياة الواقعية، بل بين البنية الذهنية لمجموعة اجتماعية معينة والبنية الكلية الدالة للعمل الفني أو الأدبي للمبدع"¹²، ويحاول بمقارنته البنوية التكوينية كشف رؤية العالم بعد رصد البنية الدالة، منطلقاً من كون الأديب في نصه الأدبي فاعلاً جماعياً يمثل لسان طبقة الاجتماعية، وهو المعبر عن وعيها في صراعها مع طبقة اجتماعية تخالفها في رؤية العالم؛ "أي إن هذا الفاعل الجماعي يترجم آمال الطبقة الاجتماعية وتطلعاتها المستقبلية، ولا سيما أن المبدع قد ترعرع في أحضانها، ويصوغ منظور هذه الطبقة أو رؤية العالم التي تعبر عنها بصيغة فنية جمالية تتناظر مع معادله الموضوعي في الواقع"¹³.

ومما سبق يتبلور مفهوم البنوية التكوينية عند لوسيان غولدمان، وتوضح المفاهيم والمصطلحات الإجرائية التي تشكل هذا المنهج النقدي والواجب التزود بها لتحليل العمل الأدبي، والتي تفتقر لتجتمع في جدول رؤيا العالم التي تمثل الهدف والغاية.

-مرتكزات البنوية التكوينية:

سعت بنبوية غولدمان إلى بلوغ وحدة الشكل والمضمون، وربط حكم القيمة بحكم الواقع الاجتماعي والتاريخي، وتوثيق علاقة التفسير بالفهم، وبنيت منهجيتها على جملة من المفاهيم الإجرائية سنكتفي بأبرزها:

1* - الفهم والتفسير (la compréhension - l' explication):

الفهم والتفسير عمليتان إجرائيتان متلازمتان متعاقتان، وليستا متعارضتين، فهما تشكلان مقولة واحدة في المنهج البنوي التكويني، إذ يمكن عدّهما عملية واحدة؛ تركز الأولى منهما على المستوى الداخلي الضمني للعمل الأدبي أو الأعمال الأدبية، من خلال تحديد أبرز سمات العمل الأدبي على مستوى اللغوي والبنائي، وتختص الأخرى بدراسة المستوى الخارجي وما يحايثه من بنيات تمارس تأثيرها على الموضوع، ويتم في هذا المستوى ربط البنية الدالة بالبنيات المتصارعة معها فكريا في الواقع الاجتماعي والثقافي، وتعد هذه المرحلة الغاية النهائية للناقد البنوي التكويني.

ويحدد غولدمان شروط عملية الفهم الذي يعدّه إجراء فكريا يتقيد بوصف دلالات العمل الأدبي دون تجاوزها إلى خارجها يقول: "انطلاقا من أبسط بنية يجب أن نحلل نصا ما أو على الأقل جزءا معتبرا من هذا النص، بحيث يصعب أن نتصور فرضيتين لهما الدرجة [نفسها] من البساطة والفاعلية، وتسمى هذه العملية تأويلا أو فهما، ونؤكد على أنها ملزمة بالخضوع إلى قاعدة أساسية مفادها أن نأخذ بعين الاعتبار كامل النص دون إضافة شيء إليه"¹⁴؛ ويتم بذلك التعامل مع العمل الإبداعي دون تجاوزه لما يحيط به.

ويقترح الناقد السوري جميل شحيد شروطا ثلاثة لعملية الفهم التي تهدف إلى استجلاء البناء الدلالي الصادر عن العمل الأدبي بكشف نموذج دلالي بسيط تكونه مجموعة من العناصر والعلاقات، التي تعطي النص المدروس صورة مجملة تميزه عن غيره، ويتمثل الشرط الأول في إيجاد علاقة شاملة لكامل النص تمنحه صورته الإجمالية يتكامل عبرها الشكل البنوي للخطاب بالنص ونموذج الدلالة، والشرط الثاني يتمثل في انتقاء الأشكال النموذجية بعد المعالجة الإجمالية، ويشترط في الأخير الحذر من حذف بعض عناصر النص أو إضافة أخرى¹⁵.

ويظهر من ذلك أن مرحلة الفهم تهدف إلى استخلاص البنية الدالة في النص، وتقتصر عليه وحده لا تتجاوزه إلى غيره، وتعتمد التحليل المحيث المبني الذي يبرز عملية عقلية تصف وصفا دقيقا البنية الدالة للعمل الأدبي دون أي إضافة إليه، ويؤكد غولدمان على صرامة هذا الإجراء يقول: "إن هذه العملية يجب أن تخضع لقاعدة أساسية مؤداها أن [الفهم] يضع النص كل النص في اعتباره دون أن يضيف إليه شيئا، وقد قلت إن المرء ليس له الحق في أن يضيف شيئا إلى أوديب عند سوفكليس، فيفترض أن أوديب كان ينطوي على رغبة لا واعية في الزواج من جوكاستا، ذلك لأن فكرة سفاح القرى ليست مقررة في أي مكان من نص أوديب"¹⁶.

ويفترض الفهم أن النص يمثل كلا يبحث في داخله عن بنية دالة شاملة متأصلة فيه، ليكون الفهم قراءة داخلية للنص أساسها اللغة وكشف النسق، تقدم فهما للقوانين المتحركة في البنية الداخلية، يجعلها في حاجة حسب غولدمان إلى عملية التفسير، ليتم الانتقال من الأدبي إلى الاجتماعي، "فإذا كان الفهم عملا متصلا بالنص، فإن عملية التفسير هي وضع هذا الأخير في علاقة مع واقع خارج عنه"¹⁷، لتفترق بذلك عن البنيوية الشكلية التي وقفت عند الجوانب اللغوية للنص.

وبالانتقال إلى عملية التفسير التي تركز على بنية أشمل وأوسع، فهي تربط البنية الدالة المتأصلة في النص ببنية فكرية متصارعة في الواقع الثقافي للمجتمع، فتقيم بذلك علاقة بين العمل الإبداعي وواقعه الخارجي، ويبرز التكامل بين العمليتين يقول غولدمان: "لقد قلنا إن الفهم هو أن نضع بنية العمل الأدبي تحت الدراسة، والتفسير ليس إلا رؤية أوسع لهذه البنية، فالتفسير عامل بنائي ووظيفي في بنية شاملة، والتي لا ينظر إليها المؤلف بطريقة تجزيئية إلا في الحالات الضرورية لتوضيح عملية تكون العمل المدروس؛ فيكفي في هذه الحالة أن نأخذ البنية الشاملة

لدراستها حتى يصبح الفهم تفسيراً، ليجد هذا البحث التفسيري نفسه مضطراً للتواصل مع بنية جديدة أكثر اتساعاً¹⁸.

فالتفسير يدعم الفهم في التحليل البنيوي، وبدفعان المحلل البنيوي إلى التنقل بينهما باستمرار، "أما عند انتهاء البحث، ويشرع الباحث في تقديم نتائجه، فإن عليه أن يفصل بين فرضيات [الفهم] المتأصلة في العمل وبين فرضياته [المفسرة] التي تتجاوز [الفهم]"¹⁹، ويعني الانتقال من الفهم المعبر عن رؤية العالم بتأكيد مبدأ المحايثة لصياغة العمل الإبداعي إلى التفسير الذي يعد "المقابل الموضوعي للذاتي، لأن رؤية المبدع للعالم لا يمكن أن تتصور إلا بعد قراءة كلية لعمل إبداعي أو عدة أعمال إبداعية"²⁰؛ وتتحقق سمة التكوين من هذا الانتقال، أي من البنية الدالة للعمل الأدبي إلى إطاره الخارجي، من خلال ربطه بالزمرة الاجتماعية التي يمثلها.

2* - البنية الدالة (la structure significative):

يعد مصطلح البنية الدالة أو الدلالية مقولة ذهنية، هي أعم خطوات التحليل البنيوي، وإحدى ركائزه الهامة، تبرز في العمل الأدبي مشكلة منظوره الفكري من خلال تكرار دلالي وتواتر بنيات في نسيج العمل، "وتحمل بنى العالم الإبداعي دلالات وظيفية تعبر عن انسجام هذا العالم وتماسكه دلالياً وتصورياً في التعبير عن الطموحات الاجتماعية والسياسية والإيديولوجية للجماعة"²¹؛ وقد عدّها غولدمان مفهوماً إجرائياً تتمثل وظيفته في تمكيننا من فهم طبيعة النصوص الإبداعية ودلالاتها، والحكم على قيمتها الجمالية والفلسفية، وإدراك رؤية المبدع للعالم في إطار تصور جماعي ومقولاتي.

البنية الدالة تتواجد في تمفصلات النص الأدبي، تخترق كيانه، تمكن متلقي العمل من فهم خلفية الفئة الاجتماعية المعبر عنها فهماً عميقاً، فهي تصور يتحكم في مجموع العمل الأدبي، وقد صرح غولدمان ببدايات استخدام هذا المصطلح يقول:

"إن علم الاجتماع البنوي التكويني قد أخذ ثلاث أفكار أساسية طورها قبل فرويد وهي: أن لكل عمل إنساني دلالة، تتجم هذه الدلالة عن طابعها الشمولي النسبي - والشئ نفسه بالنسبة لبنيتها -، ولا تستطيع أن تتبلور إلا بدخولها في بنية تشكل جزءا منها أو تندمج فيها، وتنشأ البنى الدلالية عن ولادة ويتعذر فهمها وشرحها خارج هذه الولادة"²².

وإذا استطاع العمل الإبداعي المتميز أن يعبر عن العبقرية الفردية لمبدعه، فإنه بالمقابل يعبر عن الخصوصية المميزة للحظة التاريخية التي أتاحت بروز هذا العمل في صورته الشمولية، إذ يمثل المبدعون المتميزون رؤية العالم الخاص بمجموعتهم الاجتماعية، وذلك يستدعي دراسة أعمالهم الإبداعية في إطار المجموع الذي تشكل جزءا منه، ويحدد وحدة طبيعتها ودلالاتها الموضوعية، فلا يكفي في التحليل البنوي الغولدماني الوقوف عند نتاج واحد أو عند فردية مؤلف، والواجب تجاوزه إلى البنيات التاريخية والاجتماعية.

وتتطلب معرفة البنية الدالة في العمل أو الأعمال الأدبية والوصول إليها "تعمقا وفهما لتفاصيل الأحداث الواقعية من جهة، ومن جهة أخرى الاضطلاع بالقيم الفكرية المنبثقة عنها التي تتسرب في أبعاد ثلاثة تتفاعل في صلب الكيان الاجتماعي"²³؛ وقد لخص غولدمان هذه الأبعاد في الحياة الفكرية والنفسية والعاطفية، والحياة الاقتصادية، والحياة الاجتماعية التي تعيشها المجموعة التي يعبر عنها النص الأدبي، وهي الموصلة إلى تحديد رؤية المبدع للعالم ومن خلاله رؤية الطبقة الاجتماعية التي ينتمي إليها، ويعبر عنها.

ويظهر من خلال ما سبق أن الباحث في العمل الإبداعي بحثا بنويًا تكوينيًا عليه أن يبدأ بتحديد البنية الدالة الكلية للعمل، ثم يكتشف الدلالة الموضوعية للنص بإرجاعه إلى سياقه التاريخي والاجتماعي، والنظر إليه من خلال خصيستي

البنية: خصيصة الشمولية أو الكلية التي تربط المبدع بمجمعه وتاريخه، فيدرج الباحث البنيوي التكويني العمل الإبداعي محل البحث في مجموعة أكبر تتمثل في أعمال معاصريه، ليتحقق الانتقال من الأثر الأدبي إلى الجماعة ومن المبدع إلى عملية الإبداع؛ لأن "كل حقيقة جزئية لا تأخذ معناها الصحيح إلا إذا وضعت في المجموع، كما أن المجموع لا يمكن أن يتحقق إلا عن طريق المضي قدما في استكناه الظواهر الجزئية"²⁴.

وتهدف خصيصة التماسك إلى استجلاء الوحدة الداخلية للعمل الإبداعي عبر علاقات الشكل بالمضمون التي تمثل صورة للعلاقات الإنسانية التي يعبر عنها العمل الأدبي، والتماسك "لا يعني الترابط المنطقي، كما أنه غير تفسير الأثر من خلال تركيبه الباطني كما في النقد التيمي (thème)، وإنما هو الرباط ذو الدلالة بين الأجزاء والكل، كما أن البنية الدالة تفترض وحدة الأجزاء ضمن الكلية والعلاقة الداخلية بين العناصر، والانتقال من رؤية سكونية إلى رؤية دينامية، رغم أن قلة من المبدعين هم وحدهم الذين يحملون رؤية عالم في ضمايرهم وفي أشكال إبداعهم"²⁵.
ومما سبق تظهر أهمية الخصيصتين الإجرائيتين (الشمولية والتماسك) في فهم دلالات الأعمال الإبداعية الفنية والفلسفية والجمالية وتأسيس تعبير الأعمال الأدبية عن رؤية العالم.

3* - رؤية العالم (la vision du monde):

يعد مصطلح رؤية العالم من أهم المصطلحات الإجرائية في المنظومة الاصطلاحية للبنوية التكوينية، فهذا المنهج النقدي لا ينظر إلى الأعمال الإبداعية إلا بعدّها تعبر عن رؤية العالم التي تتبلور داخل زمرة أو جماعة اجتماعية في احتكاكها بالواقع، وفي تمييزها عن طبقات المجتمع الأخرى المتصارعة معها؛ ولا يتجاوز دور المحلل البنيوي محاولة كشف هذه الرؤية التي يجسدها المبدع في عمله

الأدبي بصورة متكاملة، تعبر عن آمال الجماعة التي ينتمي إليها ويمثل أفكارها وطموحاتها، ويتحدد من خلال ذلك أن الأديب وإن تفرّد بالصياغة الجمالية للعمل الإبداعي - لا يمتلك رؤية العالم الفكرية في عمله الأدبي فهي ملك لطبقته، ويقتصر دوره على توضيحها وإبرازها.

وتبرز رؤية العالم وجهة نظر اجتماعية لا فردية، يبررها كون "النص الأدبي له وظيفة اجتماعية يسعى نحو تحقيقها، ثم أن هذا الفكر المعبر بطرق التعبير المختلفة عن تطلعات فرد منضو بالضرورة تحت طبقة اجتماعية معينة، وهو حين يعبر عن الفرد يندمج في التعبير عن طموحات هذه الطبقة المنتمي إليها، إن الفكر والأدب طبقان، لا يتسميان على الطبقات الاجتماعية، ولا يترفعان عن الصراع الطبقي، إنهما منتج اجتماعي، وفاعلان فيه"²⁶؛ وهذا ما دفع الناقد البنيوي التكويني في مقارنته للعمل الأدبي إلى تجاوز مجرد معرفة الترابطات اللغوية وكشف علاقاتها بالانتقال إلى التحليل الطبقي الذي يصير العمل رؤية للعالم بدلالات اجتماعية، وغايته من ذلك كشف هذه الرؤية المستترة بين طيات الألفاظ والتراكيب.

إن أول ما يجب الإشارة إليه هو أن الممارسة النقدية الحديثة ستستمر تؤسم بمفارقة الاختلاف والتباين في المقاربة، مما يطرح إشكالا سيظل قائماً، ومرد ذلك: إلى أن الظواهر الإبداعية لا تقول الحقيقة؛ لأن النص الأدبي الراقى والخالد يستعصي على القبض، وسيحمل معطيات الديمومة والاستمرار، وسيظل مفتوحاً يرفض القراءات المعيارية وما تدعيه من حقيقة وجزم.

تطبيقات البنيوية التكوينية على النص الغزلي العذري:

يحمل الكتاب محل الدراسة عنوان (سوسولوجيا الغزل العربي - الغزل العذري نموذجاً)، ليجمع بذلك بين شقين أو جانبيين من جوانب منظومة العلوم الإنسانية؛ هما الأدب باعتباره نمطاً إبداعياً متسامياً عن الواقع، رغم أنه يشبهه قليلاً

أو كثيرا وعلم الاجتماع الذي يهتم بتفسير سلوك الفرد داخل الجماعة البشرية التي ينتمي إليها، وتأثير هذه الجماعة على قناعاته ومدى تعاونه أو رفضه الميثاق الاجتماعي الذي قد يشكل سببا أو دافعا للقيام ببعض السلوكيات، وعلى هذا الأساس، يكون الشعر عامة والغزل العذري خاصة سلوكا إبداعيا فرديا اجتماعيا أيضا قد ينطلق من معايشة مجموعة ظروف ومشاعر تستنزف طاقة الشاعر، لكنها تهز كيانه وتدفعه إلى الكتابة وليس شرطا أن تكون الواقعة الأدبية واقعة بالفعل، أو أن واقعة اجتماعية صحيحة تماما، لكنها بالتأكيد واقعة بالقوة مع أحد أفراد المجتمع أو أكثر ومعايشة، فاتحة المجال بذلك للكاتب لتحريك ذلك الترابط بين الكائن والمتخيل، فيستعير اللغة وبعضا من الألفاظ الدالة ليعبر بها عن فكرة معينة هي الألم والوجد والجوى إذا تعلق الأمر بالغزل العذري. والعنوان فيه تأكيد على ارتباط الأدب بعلم الاجتماع مشكلا بذلك ما يعرف بعلم اجتماع الأدب أو علم الاجتماع الأدبي، استخدم فيه الكاتب آلية التعريب بدلا من آلية الترجمة²⁷ (المتاحة) في صياغة المصطلح الأول في العنوان (سوسولوجيا). مع العلم أن المشتغلين بحقل السوسولوجيا في علاقتها بالأدب يستخدمون عادة مصطلح علم الاجتماع الأدبي أو علم اجتماع الأدب، ليحتفظ فيه المترجم بعد ذلك ببعض المصطلحات الأجنبية المعربة حرفيا، رغم وجود ترجمات عربية خالصة ومناسبة إلى حد بعيد؛ مثل السايكولوجي بدل علم النفس، وهو ما يفسر - ربما - التعبير الواضح عن التأثير العميق لثقافة الآخر على ذهنيات المتلقي العربي ومدى فرض المصطلحات لنفسها بالقوة بحكم السيطرة الثقافية للطرف الأكثر إنتاجا.

لقد استخدم الكاتب الرؤية البنوية التكوينية التي تتعامل مع الأدب على أنه نظام مغلق مكون من مجموعة أنظمة صغيرة، وحتى نمط تأليف العنوان خاضع للمنهج الذي اختاره الطاهر لبيب فهو يضم بنية كبرى هي سوسولوجيا الغزل العربي

ثم تندرج ضمن هذه الوحدة الكبرى عناصر أو مكونات بنيوية أصغر هي السوسيوولوجيا والشعر العربي والغزل العذري وهي جميعها تحمل دلالات مفردة وإذا أضيفت إلى بعضها البعض يتوسع معناها وتشمل بذلك الحديث عن علوم شتى مختلفة مؤتلفة هي الأدب وعلم الاجتماع وعلم الاجتماع الأدبي كمكون أكبر يهتم بالعمل الأدبي دون الأديب.

مضمون الكتاب:

وعلى هذا سيتم تسليط الضوء على دراسة مهمة من الدراسات المندرجة في هذا الإطار، والتي كانت إضافة حقيقية في مجال الدراسات النقدية التي جمعت بين الإبداع النقدي في مفهومه الحديث، وبين الإبداع الأدبي في تظاهراته الزمنية المختلفة. ونخص بالذكر الدراسة الموسومة بـ: سوسيوولوجيا الغزل العربي - الشعر العذري نموذجاً - الذي احتقى من خلالها الباحث لبيب بالجدلية القائمة بين الواقع السوسيوولوجي العربي والنتاج الشعري المرتبط به، على أن هذه الدراسة التي تم التركيز فيها على الغزل العذري كنموذج سلس استطاع من خلالها لبيب الأخذ بالمكونات الأساسية للظاهرة الاجتماعية وتطعيمها بآليات نقدية حديثة تفرعت على هذه المكونات تحت مسمى الإبداع بكل تجلياته النقدية والأدبية، وغاية إفادتها الإناطة بتفاصيل الواقع الاجتماعي ومدى قدرته على إقحام نفسه في تبين المعاني وتوجيهها داخل النص الشعري، الذي يعتبر المرجعية الأساسية التي اعتمد عليها لبيب في هذه الدراسة؛ فهو ينطلق من النص الشعري باعتباره بنية متكاملة رغم ما قد يحدث من تعارضات واختلافات يقع فيها الشاعر عن قصد أو عن غير قصد، لأن الإنتاج الشعري عموماً يشكل "كلية متماسكة، وبالتالي سيتم اعتبار التناقضات والتعارضات وكأنها تندرج ضمن عمل واحد أنتجه شاعر واحد"²⁸.

وهو بهذا يرفض فكرة الانعكاس المباشر على النتاج الأدبي الذي يُفقد الإبداعية كمفهوم أدبي ويجعله عرضة لمفاهيم اجتماعية وتاريخية جافة لا تستطيع أن تتحرر منها، مُوقعة الدراسة ككل في مأزق لا يمكن الخروج منه، وبهذا يتكشف لنا "الاختلاف الكبير بين سوسولوجيا المضامين والسوسولوجيا البنيوية؛ فالأولى ترى المبدع انعكاسا للوعي الجمعي، أما الثانية فتزى فيه على العكس أحد العناصر المقومة الأهم في هذا الوعي"²⁹ على أن لبيب ورغم إيمانه بالبعد الاجتماعي ودوره في توليد المعاني داخل النص إلا أنه يرفض فكرة الانعكاس كمعطى أساس لبناء قراءة نقدية متماسكة في إشارة صريحة إلى ضرورة التماثل البنيوي للأدب مع الواقع وليس انعكاسا لأن الأعمال الأدبية عموما بما فيها الأكثر واقعية، تقضي إلى كون خيالي ينبغي البحث لا عن تطابقه مع التجريبي بل عن تماثله البنيوي معه³⁰.

وهو ما يضمن قدرا كبيرا من الاستقلالية للأعمال الأدبية، وهو ما ساعد الطاهر لبيب على تكوين منهجية نقدية متزنة أتاحت له دراسة الظاهرة العذرية في الغزل العربي بمنظور بنيوي بالرغم من بعض النقائص التي اعترت هذه الدراسة في الجانب التطبيقي، إلا أنه وفق إلى حد كبير - ربما - في اعتبار الظاهرة العذرية تعبيراً عن زمرة اجتماعية وليس عن المجتمع ككل كما تذهب إليه الدراسات السياقية الاجتماعية، كما عمد أيضا صاحب الدراسة إلى تفعيل دور التحولات التي عرفتها المجتمعات العربية على البنيات والمفاهيم في تكوين الذهنيات وتحديد المقومات الفنية الذهنية والعلاقة القائمة بينهما في شكل يحمل هذه التحولات دورا مهما للظاهرة الإبداعية الخاضع لمفهوم الصيرورة. لأن "التفاعل بين البنية والذات يرجعنا إلى الطبيعة التكوينية للبنية أي الحضور الكامن للصيرورة"³¹.

وغير بعيد عن الصيرورة وفكرة الزمرة الاجتماعية وعلاقتها بتباين الرؤى للعالم والتي اعتبرها لبيب ضوابط أساسية ومهمة في دراسة الشعر العربي عموما في

تمظهرات أفقية وعمودية (الفرد - الزمن) وما يرتبط بهما من جوانب لغوية ونفسية معقدة تصب كلها في قوالب اجتماعية وهي تلميح إلى زبئية المفهوم الاجتماعي وتعدد جوانب فهمه انطلاقا من اللغة المستعملة التي تعتبر في حد ذاتها "نظاما اجتماعيا مستقلا عن الفرد"³² في تزواج واضح بين المفاهيم الشكلانية والسياقية التي أكدها لوسيان غولدمان من جانب والتصوير الذي يرى أن "الأدب تعبير عن المجتمع [...] لذلك يرى المؤلف ضرورة قراءة العذرية بمتابعة الرمز العذري بالمعنى، من العام إلى الخاص، من الطابع الكوني إلى الأيديولوجيا العربية الإسلامية"³³ التي فرضت منطقتها على سلوك الفرد داخل المجتمع المتشعب بالعقيدة الإسلامية الذي أجم الصراع بين الرغبة والعفة (العالم المفتوح-العالم المغلق) التي اتكأ فيها لبيب على مفاهيم اتسمت بالضبابية وعدم الوضوح خاصة ما تعلق منها بالعالم المغلق كبنية فهمية جديدة لم يستطع الكاتب تحديد مستوى الانغلاق فيها لي طرح معها فكرة أخرى، وهي فكرة التجاوز "على أكثر المستويات تنوعا من مستويات السياق الجديد الذي وجد فيه العذريون أنفسهم في ظل الإسلام على اعتبار هذا عقلانيا [...] وتصبح العفة بدورها باعتبارها تعبيراً عن الإذعان نتيجة منطقية لفقدان العقل [...] فهي ليست ناجمة عن تعفف ديني لا يقوم فيه العذري بغير الامتثال للتعاليم الإلهية"³⁴.

وهو ما أوقع - ربما - الطاهر لبيب في فخ الانسياق وراء الدراسات التاريخية لتبرير ما هو مقترن بطبيعة الدراسة التي اعتمد عليها الباحث في تناوله للشعر العذري، حيث إنه كان وثائقيا سياقيا وابتعد عما أسماه هو بالتمائل البنيوي للواقع وفكرة ما أسماه بالكون الشعري العذري. وهذا رغم حرصه الشديد على اتباع آليات المنهج البنيوي التكويني والانتصار لها؛ إذ "ارتكز هذا المنهج المستوحى من بعض الأبحاث التي تمت في مجال علم اجتماع الأدب على رأسها أعمال لوسيان

غولدمان إلى مبدأ جد بسيط هو أنه لا ينبغي مساءلة الشاعر بل مساءلة شعره. ومن ثم فإن موضوعه هو التحليل المحايد للأثر، أي الإبانة عن شبكة من الدلالات الباطنية التي ينبغي الانتهاء إليها دون قسر النص³⁵ إلا أنها وفي عمومها بدت متماسكة نظريا رغم أن المفاجأة لعبت دورا كبيرا في حمل الظاهرة العذرية وبالذم بها إلى مسلك الاجتزاء والقسر.

5. الخاتمة:

نخلص بعد هذه الدراسة إلى هذه النتائج:

* - تشكل البنيوية التكوينية من البنية المتميزة بقيمها الجمالية وباستقلاليتها، ومن التوليد أو التكوين الذي يجعل هذه البنية تتطور تطورا يماثل تطور بني المجتمع الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والثقافية.

* - أنقذ لوسيان غولدمان البنيوية الشكلية من خصيصة الانغلاق على النص، وأدرك علاقة الأديب بواقعه الاجتماعي بعيدا عن مبدأ الانعكاس.

* - الفهم والتفسير والبنية الدالة من المفاهيم والمصطلحات الإجرائية التي تشكل هذا المنهج النقدي والواجب التزود بها لتحليل العمل الأدبي، والتي تفتقر لتجتمع في جدول رؤيا العالم التي تمثل الهدف والغاية.

* - مثل الطاهر لبيب شكلا من أشكال التلقي العربي المغاربي للبنيوية التكوينية - الغولدمانية- بدائتها التاريخية، وحاول تطبيقها على نص عربي تراثي، وقد أوقعه ذلك في فخ الانسياق وراء الدراسات التاريخية لتبرير ما هو مقترن بطبيعة الدراسة التي اعتمد عليها الباحث في تناوله للشعر العذري.

6. المراجع

¹¹ - عبد السلام المسدي: قضية البنيوية (دراسة ونماذج)، وزارة الثقافة، تونس، ط1، 1991، ص206.

- Lucien Goldmann .in collectif :Le Structuralisme génétique, ² -
Edition Gonthier, collection médiation, Paris, 1977, p67.
- Lucien Goldmann : Pour une sociologie du roman, Edition ³ -
Gallimard, collection idée, 1979, p246.
- ⁴ - عبد السلام المسدي : قضية البنيوية (دراسة ونماذج)، ص 206.
- ⁵ - جميل حمداوي: البنيوية التكوينية بين النظرية والتطبيق، (نسخة إلكترونية)، ط1،
2016، ص 27.
- ⁶ - محمد الأمين بحري: البنيوية التكوينية من الأصول النظرية إلى الفصول المنهجية،
منشورات ضفاف. منشورات الاختلاف. دار الأمان. كلمة للنشر والتوزيع، بيروت. الجزائر.
الرباط. تونس، ط1، 2015، ص 142.
- ⁷ - عبد الملك مرتاض: تحليل الخطاب السردى (معالجة تفكيكية مركبة لرواية زقاق المدق)،
ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط1، 1995، ص 8.
- ⁸ - صالح سليمان عبد العظيم، سوسولوجيا الرواية السياسية، الهيئة المصرية العامة
للكتاب، القاهرة، ط1، 1998، ص 53.
- ⁹ - لوسيان غولدمان . يون باسكاوي . جاك لينهارت. جاك دوبوا. جان دوفينو . ر.
هيندلسن: البنيوية التكوينية والنقد الأدبي، تر محمد سبيلا، مؤسسة الأبحاث العربية،
بيروت، ط2، 1986، ص 8.
- ¹⁰ - نفسه، ص 8.
- ¹¹ - نفسه، ص 44.
- ¹² - نفسه، ص 10.
- ¹³ - جميل حمداوي: البنيوية التكوينية بين النظرية والتطبيق، ص 27.
- Lucien Goldmann : Pour une sociologie du roman, p156. ¹⁴ -
- ¹⁵ - جمال شحيد: في البنيوية التركيبية دراسة في منهج لوسيان غولدمان، دار ابن رشد
للطباعة والنشر، بيروت، ط1، 1982، ص 85.
- ¹⁶ - جابر عصفور: عن البنيوية التوليدية (قراءة في لوسيان غولدمان)، مجلة فصول،
القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، عدد2، 1981، ص 90.
- ¹⁷ - جمال شحيد: في البنيوية التكوينية، ص 117.
- Lucien Goldmann : Pour une sociologie du roman, p246. ¹⁸ -

- 19- لوسيان غولدمان: المادية الديالكتيكية وتاريخ الفلسفة والأدب، تر نادر زكري، دار الحداثة، بيروت، ط1، 1981، ص107.
- 20- نور الدين صدار: البنيوية التكوينية في المقاربات النقدية العربية المعاصرة، عالم الكتب الحديث، أريد، الأردن، ط1، 2018، ص33.
- 21- حياة لصحف: مصطلحات عربية في نقد ما بعد البنيوية، المجلس الأعلى للغة العربية، الجزائر، ط1، 2013، ص141.
- 22- محمد الأمين بحري: البنيوية التكوينية من الأصول النظرية إلى الفصول المنهجية، ص147.
- 23- نفسه، ص151.
- 24- Lucien Goldmann : Pour une sociologie du roman, p109.
- 25- محمد عزام: فضاء النص الروائي (مقاربة بنيوية تكوينية)، دار الحوار، اللاذقية، ط1، 1996، ص49.
- 26- محمد بنيس: ظاهرة الشعر المعاصر في المغرب (مقاربة بنيوية تكوينية)، دار العودة، بيروت، ط2، 1985، ص23.
- 2727- كارم السيد غنيم: اللغة العربية والصحة العلمية الحديثة، مكتبة ابن سينا السعودية، (د ت)، ص 86، 87.
- 28- الطاهر ألبيب: سوسيلوجيا الغزل، تر مصطفى المنساوي، منشورات عيون المقالات، دار الطليعة، الدار البيضاء، ط1، 1987، ص 33
- 29- لوسيلن غولدمان: المنهج البنيوي التكويني في تاريخ الأدب. تر: بدر الدين عدتكي. مجلة الفكر العربي المعاصر. لبنان. عدد 1. أيار 1980. ص 44.
- 30- الطاهر ألبيب: سوسيلوجيا الغزل، ص 34.
- 31- نفسه، ص 49.
- 32- زكريا إبراهيم. مشكلة البنية ص 259.
- 33- الطاهر ألبيب: سوسيلوجيا الغزل، ص 70.
- 34- نفسه، ص 81- 82.
- 35- نفسه، ص 6.